

معرفة ا



«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يَبْلُغُ مِدْحَتَهُ الْقَائِلُونَ وَلَا يُحْصِي نَعْمَاهُ الْعَادُّونَ وَلَا يُؤَدِّي حَقَّهُ الْمُجْتَهِدُونَ» الَّذِي لَا يُدْرِكُهُ بُعْدُ الْهِمَمِ وَلَا يَنَالُهُ غَوْضُ الْفِطَانِ الَّذِي لَيْسَ لَصِفَتِهِ حَدٌّ مَحْدُودٌ وَلَا نَعْتٌ مَوْجُودٌ وَلَا وَقْتُ مَعْدُودٌ وَلَا أَجَلٌ مَمْدُودٌ فَطَرَّ الْخَلَائِقَ بِقُدْرَتِهِ وَنَشَرَ الرِّيحَ بِرَحْمَتِهِ وَوَتَّدَ بِالصَّخُورِ مَيَدَانِ أَرْضِهِ.

اعلم أيها المؤمن أنَّ ا سبحانه وتعالى هو الذي خلق الكون وما فيه وأوجد العالم وما يحويه، فخلق السماوات وزينها بزيينة الكواكب وخلق الأرض وجعل ما عليها زينة لها وجعل الشمس ضياءً والقمر نوراً، وخلق الجبال فجعلها أوتاداً، وخلق البحار والأنهار فكان منها ملح أجاج ومنها عذب فرات، وجعل من الماء كلَّ شيء حي، وبث في الأرض من كلِّ دابة وضمن لها رزقها وأنشأ النخل والزرع مختلفاً أكله.

و اعلم أيها المؤمن أنَّ ا - عظمت قدرته - قد سخّر كلَّ هذا لعباده الذين خلقهم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً، ولم يكن عزٌّ وجلٌّ ليسخر لنا هذا عبثاً أو لهواً فإنَّه تعالى عن ذلك علواً كبيراً، وإنما كان ذلك منه جل جلاله لما ميزنا به عن سائر مخلوقاته حيث خلق لنا العقل الذي خاطبه سبحانه فقال له: أقبل فأقبل وأدبر فأدبر فقال تعالى: "وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أكرم عليّ منك، بك أئيب وبك أعاقب وبك آخذ وبك أعطي".

فبالعقل يعرف ا ويعبد وبه يشكر ويحمد.

فإذا عرفت هذا فاعلم أن أوّل ما افترض ا سبحانه وتعالى على عباده وأوجب على خلقه معرفته لما لذلك من تأثير في طاعته وترغيب في عبادته، فقد روي أنَّهُ جاء رجل إلى رسول ا (ص) فقال: "ما رأس العلم؟ قال (ص): معرفة ا حق معرفته، قال: ما حق معرفته؟ قال (ص): أن تعرفه بلا مثال ولا شبهة وتعرفه إلهاً واحداً خالقاً قادراً أوّلاً وآخراً وظاهراً باطناً لا كفو ولا مثل له، وذلك معرفة ا حق معرفته.

وقال أمير المؤمنين وسيد الوصيين عليّ بن أبي طالب (ع): "أوّّل الدين معرفته وكمال معرفته التصديق به وكمال التصديق به توحيدّه وكمال توحيدّه الإخلاص له وكمال الإخلاص له نفي الصّفات عنه شهادة كلّ صفةٍ أنّها غير الموصوف وشهادة كلّ موصوفٍ أنّّه غير الصفة..." .

وقال أكمل البشر محمّد (ص): "أفضلكم إيماناً أفضلكم معرفة".

وذلك لأنّه لا يمكنك أن تعبد الله من دون أن تعرفه، فقد روي أنّ إمامنا الحسين الشهيد (ع) قال لأصحابه: "أيها الناس إنّ الله جل ذكره ما خلق العباد إلا ليعرفوه فإذا عرفوه عبدوه فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه".

واعلم يا بني أنّ عقلك هو أوّل من يدلّك على وجوب معرفة الخالق سبحانه، وذلك لأنّ العقل يحكم بلزوم شكر المنعم ومجزل العطايا ومفيض الوجود والنعم، ولا بدّ من أن يكون هذا الشكر مناسباً لحال المشكور حتى تستطيع أن تشكره بما يناسب مقامه ويليق بشأنه وأنت ترى أيها المؤمن أنّ الله سبحانه قد غمّرنا بنعمه ظاهرة وباطنه وأفاضها علينا وجللنا بها فلا بدّ من شكر واهب هذه الأمور ومنشرها، وليس هو وكما قلنا إلا الله تعالى.

ثمّ إنّ عقلك هذا الذي دلّك على وجوب معرفة ربك من خلال لزوم شكر النعم دلّك كذلك على وجوب معرفته تعالى من طريق آخر، وهو أنك وجدت في هذا الكون وأنت ترى اختلاف الناس في أفكارهم ومذاهبهم وعقائدهم وسمعت بثواب الله وجنانه وبعقابه ونيرانه فلا بدّ لعقلك من أن يستنهض قواه لبحث عن تلك الحقيقة الهامة والتي ليس فوق أهميتها شيء لتنجو من ذاك العقاب المحتمل.

ثمّ إنّ الله تعالى لم يكتفِ بما دلّك عليه عقلك بل أرسل الأنبياء والمرسلين ليعرّفوا ويرشدوا الناس إلى الله سبحانه وليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، وبعث معهم الآيات والتوراة والإنجيل والزبور، وكان خاتم أولئك الأنبياء سيد البشر محمّد (ص) وكان كتابه آخر الكتب ذاك القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فجعل فيه تعالى الآيات الواضحات التي ترشدك إلى معرفته وتحتك على البحث عنه سبحانه، واعلم أنّ أقرب الطرق وأقصرها للوصول إليه جلت قدرته هو التأمل والتدبر في ما خلق من الآيات الباهرة والبيّنات الواضحة وأنّ أفضل طريق هو ما أشير إليه في كتاب ربك وكلام نبيك وأهل بيته (عليهم السلام)، فانظر إلى قوله تعالى: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهِمْ أَزْهَى الْخَقِّ) (فصلت/ 53)، وقال عزّ من قائل: (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِآلِحَقِّ وَأَجَلَ مُّسَمًّى) (الروم/ 8).

وقال سبحانه وتعالى: (قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (يونس/ 101).

وتأمّل في قوله عزّ وجلّ: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَطَافُومٌ كَفَّارٌ) (إبراهيم/ 32-34).

وكذلك انظر لقوله تعالى: (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) (الغاشية/ 17-20).

ودقق النظر عزيزي المؤمن في قوله سبحانه: (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ النَّثْمِ رَاتٍ فَاَسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهِنَّ شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْتَدُونَ) (النحل/ 68-69).

وقوله تعالى: (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (النحل/ 78).

ثمّ انظر في كلام أمير المؤمنين وإمام المتقين علي بن أبي طالب (ع) عندما سُئل عن إثبات الصانع فقال: "البعرة تدل على البعير والروثة تدل على الحمير وأثار القدم تدل على المسير، فهيكّل علوي بهذه اللطافة ومركز سفلي بهذه الكثافة كيف لا يدلان على اللطيف الخبير".

وتأمل غاية التأمل في ما ورد عن أمير المؤمنين أيضاً من قوله (ع): "ولو فكروا في عظيم القدرة وجسيم النعمة لرجعوا إلى الطريق وخافوا عذاب الحريق، ولكنّ القلوب غليظة والبصائر مدخولة. ألا ينظرون إلى صغير ما خلق؟ كيف أحكم خلقه وأتقن تركيبه وخلق له السمع والبصر وسوّى له العظم والبشر، انظروا إلى النملة في صغر جثتها ولطافة هيئتها ألا تكاد تُنال بلحظ البصر ولا بمستدرك الفكر، كيف دبت على أرضها وصبت على رزقها، تنقل الحبة إلى جحرها وتعدّها في مستقرها، تجمع في حرها لبردها، وفي وردها لصدورها، مكفول برزقها مرزوقة بوفقها لا يغفلها المنان ولا يحرّمها الديان ولو في الصفا اليابس والحجر الجامس، ولو فكرت في مجاري أكّلاها في علوها وسفلها وما في الجوف من شراسيف بطنها وما في الرأس من عينها وأذنها لقضيت من خلقها عجباً ولقيت من وصفها تعباً، فتعالى الذي أقامها على قوائمها وبناها على دعائمه لم يشركه في فطرتها فاطر ولم يعنه على خلقها قادر، ولو ضربت في مذاهب فكرك لتبلغ غاياته ما دلتك الدلالة إلّا على أنّ فاطر النملة هو فاطر النخلة لدقيق تفصيل كلّ شيء وغامض اختلاف كلّ حي، وما الجليل واللطيف والثقيل والخفيف والقوي والضعيف في خلقه إلّا سواء، وكذلك السماء والهواء والرياح والماء، فانظر إلى الشمس والقمر والنبات والشجر والماء والحجر، واختلاف هذا الليل والنهار وتفجر هذه البحار وكثرة هذه الجبال وطول هذه القلال وتفرق هذه اللغات والألسن المختلفات فالويل لمن أنكر المقدر وجد المدبر...".

فالحمد لله الدال على وجوده بخلقه، وبمحدث خلقه على أزليته.

فإذا عرفت ذلك وفهمته جيداً فاعلم أنّ الله هو العالم الذي أحاط علمه كلّ شيء حيث يقول عزّ من قائل: (وَمَا تَسْأَلُهُ مِنْ ذِكْرٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبِيبٌ فِي طُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَاطِبٍ وَلَا يَآبِيسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) (الأنعام / 59).

وقال سبحانه: (قُلْ إِنْ تَخْشَوْنَ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْشِرُونَ بِمَا يَعْلَمُهُ الْغَيْبُ لَا تَخْشَوْنَ اللَّهَ) (آل عمران / 29).

وقال سبحانه أيضاً: (عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) (سبا / 3).

واعلم أيها المؤمن أنّ الله على كلّ شيء قدير وهو القادر الذي لا يعجز، وأنّ السمع البصير، "سميع بغير جارحة وبصير بغير آلة بل يسمع بنفسه وبصير بنفسه".

واعلم يا مؤمن أنّ الله (لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (الأنعام / 103).

واعلم أنّ الله تعالى القادر على كلّ شيء وأنّ الله (إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّهُ يَخُولُ لَهُ كُنْ فَيُكُونُ) (مريم / 35).

واعلم أنّ الله تعالى حكيم أحسن كلّ شيء خلقه فقال سبحانه: (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا) (الفرقان / 2).

وقال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (ع): "قدّر ما خلق فأحكم تقديره".

واعلم أيها المؤمن بأنّ الله سبحانه وتعالى إله واحد لا إله إلا هو لم يتخذ صاحبة ولا ولداً تعالى عما يشركون، وذلك كما قال سيد الوصيين الإمام عليّ (ع): "الحمد لله الواحد الأحد الصمد المتفرد الذي لا من شيء كان ولا من شيء خلق ما كان".

واعلم أنَّهُ تعالى ليس بجسم ولا في جهة ولا محل ولا متحد بغيره.

واعلم أنَّهُ سبحانه العادل الذي لا يجور حيث قال عزّ من قائل: (شَهِدَ اللَّسَّهُ أَزَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ) (آل عمران/ 18).

وقال أمير المؤمنين (ع): "وأشهد أنه عدل عدل وحكم فصل".

وقال كذلك (ع): "الذي صدق في ميعاده وارتفع عن ظلم عباده وقام بالقسط في خلقه وعدل عليهم في حكمه".

وبعد هذا كلامه أقول لك عزيزي المؤمن احفظ ما ذكرت لك وكن لربك من الحامدين ولآله من الشاكرين، فقد بينت لك من الأدلة على الخلق والشواهد على صواب التدبير قليلاً من كثير وجزءاً من كل فتدبره وفكر فيه واعتبر به. ►